

روایتان من شمالی افریقا

Mohammed Dib, *Cours Sur la Rive Sauvage*. Editions du Seuil, 1964

Ahmed Sefrioui, *Le Chapelet d'Ambre*. Editions du Seuil, 1964

لم تكن بالضبط كما كان قد تخيلها ان تكون .
ويختار في سبب اجتذاب رضية له . ويقض
له احيانا ان يؤوب عائدا لبلاده بدونها . ثم
يفقدها في المدينة الكبيرة . ويقول الراوي : « اين
اذهب الان ؟ من لحظة للحظة تضحي حريقي اصعب
واصعب على التحمل ... ان ما اخذته على عاتقي
تجربة ومحنة ؛ لكنها قد تعود بفائدة ، وقد تحمل
الحرية والحب » .

ويهجّر المدينة الى سواها ، لكنه يعاني ما كان
يعاني من شعور بالعزلة والوحشة . وتبدأ اذ ذاك
سلسلة من الحوادث ، يشاهد الراوي فيها نسوة
اخرى يشابهن رضية شها مدهشا . ويلقى نفسه
سائرا في مر ، عبر عدد كبير من الغرف التي ترقد
في كل منها امرأة . ايتهن رضية الحقيقية وايتهن
التقليد ؟ وفجأة ينهض جميعهن من منامهن ،
ويرحن يتحركن ويومئن حركات وايماءات متماثلة ،
الواحدة بعد الاخرى . ما نستنتجه من ذلك ان
رضية - المثال - قد تجزأت ، وانها في كل مكان
وفي لا مكان . الشيء الوحيد الذي يستطيع
ادراكه هو اسف رضية على ماثرتة على البحث عنها .
وتريه الاقنعة الفارغة التي يتوجب عليها ان تلبسها
كما تري ذاتها .

وعندها يتذكر اسما غريبا من الماضي السحيق ،
ويتلفظ به - هيل . وفي الحال تبزغ امامه امرأة
مشعة ويحتجب كل شيء آخر عن العيان . وتقول
له انه ينبغي عليه العودة الى المكان الذي ينبغي
اليه . ويردف :

« لم اعر هذه الكلمات اهتماما ، اذ كانت قد
اذهلتني ، ضععتني ، النار التوهجة التي تغفلت في
وفجرتني وبعثرت ذرات كياني في الكون . لكنها
- رضية ، التي قد سميتها الآن هيل - لكنها
اختفت فور تفورها بتلك الكلمات . ولم تكن
الروابط التي بيننا لتجدي شيئا » .

« على شاطئ مهجور » ، رواية محمد ديب
الجديدة ، هي اول رواية تنشر في فرنسا لاي
كاتب عربي جزائري منذ ان ثالت الجزائر استقلالها .
ومع ان احداث الكتاب تجري في فرنسا (دون
ان يذكر اسم هذه البلاد فعلا) فان الكتاب يرمز
الى العلاقة المتوترة بين البلدين ، اذ هو وصف
انطباعي لمحاولات ايفان زهار ، بطل الرواية
الجزائري الذي يروي القصة على لسانه ، ان يسوي
اموره مع فرنسا والفرنسيين . وليس ثمة شك في
ان البطل هو محمد ديب ذاته - خاصة اذا كان
القارئ واقفا على حياة المؤلف نفسه وعلى مؤلفاته
السابقة . فقد كانت رواياته الثلاث الاولى تدور
لحد على حياته هو ، وتصف حياة فتى عربي
جزائري . كانت كتب واقعية والوصف فيها
مباشرا . وقبل خمس سنوات هاجر محمد ديب الى
فرنسا ، تاركا مدينة تلمسان ، بالقرب من الحدود
المغربية ، التي ولد فيها وعاش فيها حوالي ٤٠
عاما . ومنذ ذلك الحين اخذ ينحو اكثر فاكثر
منحى انطباعيا وفكريا في كتاباته .

وهو يعود في روايته الجديدة الى ما يقرب من
السيرة الذاتية ، الا ان الاحداث تجري جميعا داخل
رأسه ، وكأنها كابوس طويل مديد . فالراوي ،
مثلا ، على وشك الزواج من رضية ، التي يرسمها
« كتجسيد ابيض وهاج للقوة » . ويقول الراوي :
« وتقدمت نحوي ، وطعنتني في صدري . صعقتني
الصدمة ، والدهشة ايضا . وانتظرت ان احس
بالالم ، لكن لم يكن ثمة الم . وبعدها ، طعنتني
من جديد ، عن تصميم هادي كالسابق ، طعنتني
مرات خمساً . لم يكن من جدوى في طلب مساعدة
الناس من حولنا ، او في التوقع ان يحرك احدهم
ساكنا للدفاع عني ... »

ترمز رضية الى فرنسا او الى الحضارة الغربية
اجالا ، وقد وجد محمد ديب ان الإقامة في فرنسا

ويتضح الامر للقارىء. فمحمد ديب ، الذي نال ثقافة فرنسية وحظيت مؤلفاته برضى النقاد الفرنسيين (لقد نال عليها عددا من الجوائز الادبية الفرنسية) ، كون لذاته صورة مثالية لفرنسا ، ومن بعدها وجد ان الواقع يبعد بعض الشيء عن الصورة المثالية هذه . وهذا قد حصل للكثيرين من قبله . فالسفر لبلد اجني والاقامة فيه ، انما هو من كثير من النواحي كالزواج . ومحمد ديب يرسم مقابلة موقفة بينهما . وعلى المرء ، كما في الزواج ، ان يتقبل نقائص الطرف الآخر ومع مرور الزمن ان يحبه بكامله ، بنقائصه وبجسناته . لكن هذا يستغرق زمنا - وكما يقول المؤلف ، او راوي القصة : « كم من الزمن احتاج كما اتحول من رضية الى هيل ؟ » او بعبارة اخرى ، من المثال الى الواقع . ثم تأتي الصرخة التي تمزق الفؤاد ، في آخر سطر في الكتاب : « من يتحدث ، على شاطئ مهجور ، عن مرور الزمان ! »

واذا كان المكان الذي يجيد محمد ديب نفسه فيه (هو او اقرانه من كتاب شمالي افريقيا العرب الذين يقيمون في فرنسا) ليس ، على وجه التدقيق ، شاطئاً مهجوراً ، فانه في الواقع شاطئء اقل انفتاحاً وأسوأ اضافة لهم منه لغيرهم من الاجانب . فالصراع بين فرنسا والجزائر لا يزال حديث المهدجدا . ربما كان هذا سببا يجعله يجيد ذاته على شاطئء مهجور . الا ان رواية محمد ديب ، كقطعة ادبية ، كأثر فني ، هي جهد قيم متمسك . والحق ان ما في اسلوب المؤلف وما في خياله من قوة يبعث على الدهشة . والتكنيك الذي يستعمله يذكّر القارىء بالفن التجريدي . وكان قد كتب روايته السابقة بأسلوب مشابه ، وهكذا فانه يمكن القول بان محمد ديب يتدع شكلا فنيا جديدا في كتابة الرواية ، ويشيد لنفسه مقاما فريدا في الادب الغربي .

محمد ديب اهم كاتب من كتاب شمالي افريقيا الذين يكتبون باللغة الفرنسية . ويكاد هؤلاء يكونون جميعا روائيين - في حين ان كتاب المغرب الذين يكتبون باللغة العربية يكادون يفضلون جميعا القصة القصيرة كوسيلة للتعبير . وربما كان هذا ناتجا عن طبيعة سوق الادب - فكل كاتب يريد ، بالطبع ، ان تحظى مؤلفاته بقراء . وسوق

القصص القصيرة في فرنسا ، شأنها في اوربا بوجه عام ، محدودة جدا في الوقت الحاضر . غير ان الكتاب الذين يكتبون باللغة العربية ، الذين يعملون على نطق اضيق ، ينتجون ادبا اصفى واخص ، وهم اقل التزاما من الفريق الآخر . فهم ، بعكس مواطنهم الذين يكتبون باللغة الفرنسية (والذين بالتالي لا ينسون انهم مخاطبون جهورا بباريسيا ان لم نقل اوربيا) ، لا يعنهم غير فنههم ؛ ليست لهم قضية شاغلة ؛ في حين ان مواضيع الثورة والمكانة المعطاة للفرنسيين والامتيازات التي يتمتعون بها ترد باستمرار في مؤلفات كتاب شمالي افريقيا العرب الذين يكتبون بالفرنسية - او بالاحرى كانت ترد فيها حتى وقت قريب ، اي حتى ظفرت دول المغرب الثلاث باستقلالها . او ، بعبارة اخرى ، نستطيع ان نقول ان الكتاب باللغة الفرنسية كانوا اشد عنفوانا - ولا يزالون كذلك ، ان كان لنا ان نحكم عليهم من رواية محمد ديب الاخيرة .

غير انه من الخطأ ان نطلق احكاما تعميمية . وللتدليل على ذلك ، ها هي مجموعة احمد صفر يوتي القصصية - (استثناء يبرهن على القاعدة ؟) فكتاب « مسبعة الكهرمان » يحوي اربع عشرة قصة - اربع عشرة حبة نقية تنتظم سلكا من موضوع الصراع بين قوى الخير والشر . ولد المؤلف في فاس قبل ٤٩ عاما ، وعاش حياته كلها فيها وفي الرباط . وعمل سنوات طويلة في معهد الفنون والصنائع في فاس ، ونلمح بوضوح في كتاباته حبه للحرف والفنون القديمة ولمن ما برحوا يزاولونها .

يستهل قصته « اناء الفخار » هكذا : « ان عبدالله يحيا كيا بيبي ، ليس الا . فحرقته البناء ، وهو شاعر منذ مولده . ويعرف ذلك سكان البلدة ، فلا يمهدون اليه بشغل ما . فهل ثمة من يعهد الى شاعر بان يبي له بيتا ؟ »

ويقطعن عبدالله غرفة ، يشاركه فيها صانع سجاد هو لاهوتي في الوقت عينه . وفي اوقات فراغها يعكف هذا على القراءة ويعكف عبدالله على الكتابة . يخط صفحة تلو صفحة ؛ وذات يوم يطلع رفيقه على شيء كتبه . فيقرأه صانع السجاد ،

فتيات صغيرات اخريات . ويظهر الرجل من جديد ، ويقتله الراوي هذه المرة بالهراوة . وبعد اسبوع يتزوج الفتاة . وفي ليلة الزفاف ، يقول ، « اخرت العمل الجسدي ، خشية ان اثير فيها الذكرى المربعة لما حصل عند لقائنا الاول . لكنها حضرت نفسها للجماع بيننا بدون اي اماراة من امائر الاسى . وادهشني ان اكتشف ان فضيلتها ما زالت سالمة سليمة » .

ان القوة التي للطهارة والجمال على الشر تميز هذه القصص جميعها ، وهي قصص مكتوبة بنثر صاف جميل . وهي امثال اكثر منها قصصا ، سرعان ما يمتزج فيها العالم الواقعي بضرب من عالم الخرافة والاسطورة . لكننا هو العالم الواقعي الذي ينتصر في النهاية - والعالم الواقعي بالنسبة لاهم صغريوني هو الشوارع الضيقة المزدحمة في مدينة فاس القديمة المقدسة التي يحبها ، عالم اناس مغمورين بسطاء - صانعي سجاد وصانعي احذية وبائعي ازهار وبنائين وطلاب وحجاج وفخارين . وفلسفتهم في الحياة فلسفة سليمة ، لانها لم تتأثر بالحركة الصناعية الحديثة ، من قريب او بعيد .

لن اورثن

ويقول : « هذه قصة حسنة جدا ، عن الفخار » . ويجب عبدالله : « ليس فيها شيء عن فخار » . ويقرأها صانع السجاد مرة ثانية ، ويصرخ بلهجة الظافر : « اني احب هذه القصة عن بائع ازهار » . ويقول عبدالله : « وليس فيها اي شيء عن بائع ازهار ايضا » . وينسخها صانع السجاد بكاملها ، ويعرضها على عدد من اصدقائه . ولا يتمكن ايهم ان يقول له ما الذي تعنيه . لكن القاريء يعرف ، بالطبع . وفي القصة المعنونة « في يوم من ايام الربيع » يتجلى خيال احمد صغريوني بأفضل اشكاله . يكون الراوي في الجبال المشرفة على البلدة ، حيث تدور تأملاته في مباحج اوائل الربيع ، اذ تقترب منه فتاة حسناء ، وحيدة في الدنيا ، جائعة ومتعبة . ويعطيها برتقالة وشيئا من الخبز . ويظهر عندها رجل غريب ، كائن شنيع ، ينتزع البرتقالة من الفتاة ، ويربط الرجل الآخر الى شجرة ، ويفتصب الفتاة . وتفك رابطته فيما بعد ، ويهبطان الى البلدة . ويستأجر غرفة للفتاة لتصرف الليلة فيها، وفي النهار التالي يأخذ هراوة ويعود ادراجها الى الجبل . فقد قضى الليلة لم تغمض له عين وظل يفكر في تلك الشخصية الشيطانية ، في الرجل الفظيع ، يفترس

مَسْرَحِيَّاتٌ مَضْرِيَّةٌ جَدِيدَةٌ

« رحلة خارج السور » ، بقلم رشاد رشدي . مجلة « المسرح » ، القاهرة ، ١٩٦٤

« الارانب » ، بقلم لطفي الخولي . مجلة « المسرح » ، القاهرة ، ١٩٦٤

« ادهم الشرقاوي » ، بقلم نبيل فاضل . مجلة « المسرح » ، القاهرة ، ١٩٦٤

الاثر نفسه ، حتى يخيل اليها ان العمل الادبي كله يقوم عليها . فالاديب الملتزم يجب الايضحي بأصول الفن في سبيل الموضوع ، بل ان تمسكه بالمصطلحات الفنية هو الذي يكسب انتاجه مزيدا من العمق والكثافة . والفن يجب ان يكون فنا اوليا ، وبعد ذلك لن يكون هناك مانع من ان يكون ملتزما كل الالتزام .

يضعنا الدكتور رشاد رشدي امام موضوع منتزع من صميم واقعنا المصري الذي عشناه في

تبدو قضية الالتزام في الادب في هذه الظروف التي يمر بها مجتمعنا ضرورة بالغة الاهمية . والمسرح بالذات - باعتباره فنا جماهيريا - يجب ان يكون مسرحا ملتزما بواقعه كل الالتزام . ومن خلال هذه المراجعة سأعرض بالنقاش ثلاث مسرحيات ظهرت اخيرا في الجمهورية العربية المتحدة ، مينا مدى التزامها بالواقع الذي تعايشه . والالتزام يجب الا يكون هدفا في حد ذاته ، يخطط له الاديب قبل الشروع في خلق انتاجه الادبي ؛ ولكن الفكرة الملتزمة يجب ان تنبت تلقائيا من ثنايا